حياة العربية وفضلها ووسائل تنميتها في فكر محمد الخضر حسين
Arabic in Mohammad Al-Khadr Hussein's Thought: Life, Virtue and Methods of Development

د. محمد عمر أبورحمة
جامعة العلوم التطبيقية الخاصة/ الأردن

الملخص: سعى البحث إلى استجلاء التفكير اللغوي عند محمد الخضر حسين، وأنظاره اللغوية في فضل العربية ووسائل تنميتها، لتجلية منهجه الفكري والثقافي باعتباره أنموذجاً للباحثين اللغويين الرواد في مرحلة مهمة من حياة الأمة العربية في العصر الحديث، وانطلاقاً من دوره الإصلاحي في السياسية والاجتماع والثقافة العربية في النصف الأول من القرن العشرين، وجهده في مجمع اللغة العربية، ومعتمداً على آرائه اللغوية في بحوثه ومقالاته. وقد انتهى البحث إلى عمق الإيمان عنده بدور اللغة ووظيفتها في حياة الأمة العربية، وسبيل وجودها في الحضارة الإنسانية، ومن أهم مقومات وحدتها وأمنها القومي، بفضل مقدرتها اللغوية على مواكبة الحضارة، ومسايرة تطورها بفعل قوانينها الداخلية، وظواهرها ومقاييسها اللغوية التي ميّزتها عن اللغات الأخرى، لما استوعبت كل مستحدَث بوسائل تنميتها.

الكلمات المفتاحية: الفكر اللغوي، حياة اللغة، الاتساشع، النمو اللغوي.

Abstract: The present article is aimed at exploring Mohammad Al-Khadr Hussein's thought with regard to the virtue of the Arabic Language and methods to develop it. Hussein is considered a model pioneer linguist of Arabic in a significant stage of the modern times. Employing the language views stated in his essays, he played a reformative role in politics, sociology and the Arab culture as well as in the Arabic Language Complex. It is concluded that Hussein firmly believed in the contribution of the language in the Arab nation's life, Pan-Arab unity and security and influence on the human civilization. It enjoys a unique ability to cope with modernity, due to its flexible internal rules, phenomena and measures, which facilitate containing any innovation.

Keywords: language thought, language life, broadness, language development.

المقدمة :

تخضع اللغة لقوانين التطور والتجدد والنمو في مجتمعها، وتمتد في حركة الزمان نحو المستقبل منذ بدأ التواصل الإنساني بها؛ ذلك أنها تمثل عمر الأمم وشعوب وذاكرتهم ووعاء حضارتهم،وتاريخها يعني تاريخ البشرية على الأرض، وبوصفها متطورة تستوعب الوجود الإنساني في تفاعله مع إملاءات الزمان والمكان متأبية على التقنين المجرد الذي يصادر تطورها، فالتطور سمة اللغات الحية التي لاتندثر ولا يقلّ مستعملوها، وتحكي بمعجم ألفاظها وأساليبها ومصطلحاتها أفراد عصرها وحياتهم وتراث أسلافهم، وتجمع وجدانهم وتوحد فكرهم متجاوزة تعددية القوميات فيها لتشكل في بعدها التاريخي الممتد في الزمان والمكان الأمن القومي في خلود الأمة وبقائها، غير أن التطور لا يعني التغير السريع في زمانها اللغوي، ولا تنتظم كل مجتمعاتها التحولات العميقة في سيرورة اللغة، فالعربية ترتبط بأصولها لأسباب دينية وثقافية وفكرية وسياسية في معيار الثبات ومنطلقات التحول، فهي في نظر علماء اللغة كيان تام في خدمة القرآن وقد استقبلت كماله وتمامه، ونجاح القرآن في توحيد العرب لغوياً في كيان مشترك رغم تعدد لهجاتهم، وتغاير بعض مستوياتها في أنظمة الصوت والصرف النحو، جعل علماء اللغة يقيمون قواعد كلية تنتظم حياة العربية وتطورها ونموها بفعل قوانينها الداخلية ما يضمن حركية اللغة في زمانها الممتد امتداد الحضارة والهوية والانتماء، فضلاً عن الوظائف التواصلية اللغوية في صراع البقاء والفناء.

وقد صرف العلماء قديماً وحديثاً جهدهم في تتبع الظواهر اللغوية، والقواعد الكلية الناظمة لحياة العربية وفضلها ووسائل تنميتها، ووجهوا أنظارهم الفكرية واللغوية في استيعاب سمة العصر وروحه في تمثلات الصيغ العربية وأساليبها وتراكيبها.

إن البحث في فضل العربية ووسائل تنميها مقاربة لخصوصية اللسان العربي بين قواعد الاستعمال عامة، ومنظومة حياتها وتجددها ونموها وسعتها لمستحدثات العصر وصور تطوره، وقد انشغل الرواد في العصر الحديث في تجلية الأنظار اللغوية وكشف كنهها، وفهم التمثلات الاستعمالية للسياقات التركيبية وحقيقتها، ونسق القوانين الناظمة لحياة العربية في استيعابها مضامين العصر وحركية اللغة في زمنها عبر الممارسة الفعلية للأساليب التعبيرية العربية، فصدر عنه جيل من أئمة العلم مثلوا مرحلة مهمة من التاريخ الحديث للأمة العربية في بحثها عن هويتها وعوامل وحدتها وأمنها القومي.

وركز البحث على فكر الإمام محمد الخضر حسين(ت1957)-الفقيه المجمعي– بما قدمه في هذه الفترة من جهود لغوية عظيمة، رفد فيها المكتبة العربية بتآليف كثيرة أصبحت مراجع يؤمها دارسواللغة والفكر والإصلاح، وقد تواصل عطاؤه في خدمة العربية بعد قراءة التراث قراءة عميقة وقف فيها على أبعاد لغوية لا تعيد اجترار السابق، إنما يضيف من وعيه بحقيقة الحياة العربية وأفق وجودها وأبعاد حضارتها وتراثها الممتد خصوصية العربية وفضلها في تنمية الوجدان الجمعي العربي في علاقته بالآخر.

وسيسعى البحث إلى كشف منهجه العلمي والفكري بمنهجية الوصف والتحليل في تصورالظواهر اللغوية العربية، وإعمال عقله في فضلها ووسائل تنميتها وبعثها برؤية جديدة تتواءم وروح العصر، فقدم نتاجاً بالغ الأهمية جعله رائداً في التفكير اللغوي الحديث من عمر العربية، فجاءت الدراسة للوقوف على فكره اللغوي وحصره وتسجيله وتحليله ومناقشته معتمداً على أنظاره اللغوية ومقالاته العلمية المبثوثة في كتبه ومؤلفاته وأهمها : دراسات في العربية وتاريخها، ودراسات في اللغة.

المبحث الأول : حياة اللغة العربية

عرض محمد الخضر حسين نظره اللغوي في بعده الفكري متأملاً علاقة اللغة بالفكر، وأثره في حياتها معتمداً المنطق العقلي في فهم طبيعة اللغة ومفهومها ووظيفتها وروابطها الدلالية، وهو ما يقيم عليه أحكامه واستنتاجاته التأملية، فيظهر التوقد الذهني عنده مثلاً في قياسه على فهم الدلالات اللغوية بقانون الطبع والاصطلاح بتمثيله: " وإذا قالوا : إن دلالة احمرار الوجه على الخجل طبيعية، فعلى معنى أن احمرار الوجه يرتبط بالخجل بقانون طبعي، أما نفس الدلالة فإنها لا تتحقق إلا بعد أن يكون الناظر قد علم أن احمرار الوجه ينشأ عن الخجل، وهذا العلم إنما يحصل من نحو التجربة أو التلقين "(الخضرحسين،1960: 9).

وقد عبر عن آرائه اللغوية بوضوح في بداية بحوثه، فتناول : مفهوم اللغة وأصل نشأتها وتأثيرها في الفكر، وإنسانيتها وحياتها وعلاقتها بالإسلام وغيرها من القضايا والإشارات في محاولة استكناه حقيقة اللغة وحياتها وفضلها.

أولاً : فضل اللغة العربية على غيرها من اللغات

يقرّ محمد الخضر حسين فضل العربية في استيعابها لمضامين الحياة والوجود الإنساني، وقدرة مفرداتها وتراكيبها وأساليبها في خدمة المعاني، ويكفيها شرفاً أنها لغة القرآن - كلام الله- الأخير النازل إلى الأرض، وكأن العربية استوعبت كل المنهج الرباني منذ الخليقة إلى انتهاء نزول الوحي، وأن تُختتم الرسالة بالعربية له دلالته:" ولما شرفها الله تعالى عزَّ اسمه وعظَّمها ورفع خطرها وكرَّمها وأوحى بها إلى خير خلقه وجعل لسانَ أمينه على وحيه وخلفائه في أرضه وأراد بقضائها ودوامها حتى تكون في هذه العاجلة لخيار عباده وفي تلك الآجلة لساكني جنانه ودار ثوابه"(الثعالبي،2002: 5). وفضلت العربية بما كان لها من تشريف الله لها أن تكون لغة الوحي الأخير بالقرآن، وقد وصف الله تعالى اللسان العربي بأبلغ الأوصاف: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}(سورة الشعراء:192).

وفي العربية من الاتساع في الأوصاف ما ينقل المعنى الذي يريده المتحدث بأبلغ البيان، فيحضر الموصوف في ذهن السامع أكثر ممن رآه، فقد يختار المتحدث من أوصاف السيف ما يجعل السامع كأنه يمسكه بيده ويدركه بحواسه، فأين اللغات الأخرى من باب الترادف الذي يثري اللغة ويجعلها تفضل مثيلاتها، وقد يقول قائل ببلاغة الكلام وبيانه في أي لغة كان لما عبّر عن المعنى المراد الذي فهمه السامع، وإنما شأن البيان في سحر الألباب وسرقة الأسماع وحضور الرونق في عذوبة اللفظ، وهو ينقل المعنى بطرائق ساحرة، يقول ابن فارس: " إن كنتَ تريد أن المتكلّم بغير اللغة العربية قَدْ يُعرِبُ عن نفسه حَتَّى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان، لأن الأبكم قَدْ يدلُّ بإشارات وحركات لَهُ عَلَى أكثر مراده ثُمَّ لا يسمّى متكلماً، فضلا عن أن يُسمَّى بَيِّناً أَوْ بليغاً.وإن أردت أنَّ سائر اللغات تبيّن إبانة اللغة العربية فهذا غَلط، لأنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلاَّ باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرةً، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسمّاة بالأسماء المترادفة. فأين هَذَا من ذاك، وأين لسائر اللغات من السَّعة مَا للغة العرب؟ " (ابن فارس،1993: 19).

وكان محمد الخضر حسين منصفاً حين عرض مكانة العربية من عيون الأعاجم الذين خبروا العربية وشهدوا لرقيها وسموها، ونحو ذلك أبلغ في حجة الرأي وأقرب إلى عدالته؛ لأن الأعجمي سيحكم بعقله ومنطقه على قوة اللغة وفضلها لا بعاطفته وانحيازه، وقد وجد في أهل فارس ممن عرف العربية، وانتصر لها مع حسه ببيان لغته الفارسية مستنداً إلى قول ابن جني في الخصائص : "إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمي، وقد تدرب بلغته قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمع بينهما بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده في نفسه، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه"(ابن جني،1955: 244/1).

وقد نجد انصافاً في نظر المستشرقين الدارسين لعلوم العربية في التعبير عن انبهارهم ببراعة العربية وأساليب بيانها تصل لمستوى الدهشة من غزارة ألغاظها ودقة معانيها، ونحو ذلك ما أورده محمد الخضر حسين من شهادة المستشرق أرنست رينان في كتابه " تاريخ اللغات السامية " قوله: " من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل. تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها. ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغيير يذكر، حتى إنها لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة لا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى، ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة" (الخضرحسين،1960: 19).

ويدل عرضه آراء المستشرقين على عمق فهمه لقوة الدليل القادم من الآخر غير العربي، ومدى إقناعه للمتشكك أو المنكر لفضل العربية، وينافح عن غيرها من اللغات، فيأتيه من حيث دفاعه عنها، ويقول " لندع الحكم بين اللغة العربية وأي لسان أعجمي لمن يعرف العربية الفصحى ويعرف ذلك اللسان الأعجمي، فهو الذي يصغي إليه الناس متى آنسوا فيه الإنصاف، ويتلقون حكمه بالقبول"(الخضرحسين،1960: 19).

ويعقب ذلك شهادته بفضل العربية في مقارنتها مع اللسان الألماني، الذي يجلي منزلة العربية وشرفها وفضلها، يقول " والذي أقوله وأنا على بينة مما أقول: إن أساليب اللغة العربية أقرب إلى النظم الطبيعية من اللسان الألماني، فإن في اللسان الألماني ضروباً من التصرف يفقد بها الكلام ترتيبه الطبعي، وليس لهذه الضروب في العربية الفصحى من شبيه " (الخضرحسين،1960: 20).

ويعكس هذا الفهم لقوة الشاهد والدليل وأثره في الاقناع فكر محمد الخضر حسين ومنهجه بمنطق عمل العقل العربي وأفقه وعلامات رقيه، ومدى ضعفه أما الآخر المستشرق، وكأنه يبحث عن ذاته وثقته بها في وعي الآخر وشهادته للغته بالتفوق والفضل، فالشهادة من الآخر لها قوة أخرى.

ثانياً : فصاحة الألفاظ العربية وإحكام وضعها

تمثل لغة قريش اللغة المشتركة الفصيحة، وقد نظم بها الشعراء والأدباء، واجتمعت العرب على فضلها عن سائر لغات العرب، ويعزو محمد الخضر حسين فضلها بوجهين :

الأول مكاني: بعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ولهذا لم يحتج أهل الصناعة العربية إلا بلسانهم، أو ما كان قريبا منه ولم يعتمدوا لغات القبائل التي تجاور غيرها من الأمم كلغة لخم وجذام وقضاعة وغسان .

والثاني زماني : كان العرب يفدون على قريش في موسم الحج، ويقيمون عندهم قريبا من خمسين يوما، فيتخيرون من لغات أولئك الوفود ما تعادلت حروفه وخف وقعه على الأسماع، ويرفضون كل ما يثقل على الذوق ولا يجد في السمع مساغا" (الخضرحسين،1960: 128).

ولم تقف اللهجات بتعدد ظواهر أصواتها عقبة أمام اللغة الجامعة، والتي اكتمل نضجها قبل نزول القرآن، واستطاعت أن تصهر اللهجات في لغة جامعة مشتركة تستبعد الشاذ منها، ويفهمها مجموع العرب وينتظم التعبير بها، وهي اللغة النموذجية المثالية، ولعل السلطة الروحية والأدبية التي تمتعوا بها، وهم في جوار البيت العتيق جعلت لغتهم أفصح لغات العرب، فيختارون من لغات الوفود ما وافق طباعهم، وتناغم مع أدائهم اللغوي، وكان في مستوى الفصيح منهم بعيداً عن المسفّ منه، يقول ابن فارس: " وَكَانَتْ قريش، مع فصاحتها وحُسن لغاتها ورِقَّة ألسنتها، إِذَا أتتهُم الوُفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع مَا تخيّروا منتلك اللغات إِلَى نَحائزهم وسَلائقهم الَّتِي طُبعوا عَلَيْهَا. فصاروا بذلك أفصح العرب"(ابن فارس،1993: 52).

والشأن في علو منزلة اللغة الفصيحة ما تجمع فيها من رقة اللفظ وما جرى منها مجرى الحسن، ورفضهم كل ما يثقل على الذوق ولا يستساغ سماعه، وقد نقل السيوطي عن الفراء قوله: " كانت العربُ تحضر المَوسِم في كل عام وتحجُّ البيتَ في الجاهلية وقريشٌ يسمعون لغاتِ العرب فما اسْتحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصحَ العرب وخلَتْ لغتُهم من مُستبْشع اللغات ومُستقبَح الألفاظ من ذلك: الكَشْكَشة وهي في ربيعة ومضر يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شِيناً فيقولون: رَأَيْتُكش وبكَش وعَلَيْكَش" (السيوطي،1998: 211/1).

ويقر محمد الخضر حسين توافق الحسن في نفس العربي وطبعه مع جمال الألفاظ وتناغم الأصوت ما يبعث في النفس راحة الخاطر، ويقول: " ولا غرابة أن تجري الألفاظ في وصف الحسن والقبح مجرى جنسها الذي هو الصوت، فمن الأصوات ما يحدث في السمع لذة، ويرتاح الخاطر بالإصغاء إليه كنغم الأوتار، وسجع البلبل من الطير، ومنها ما يرميه الطبع، وينقبض لسماعه كنعيق الغراب وصرير آلة النشر"(الخضرحسين،1960: 128).

وقد أشاد في محكم وضع المفردات في بناء العربية على قاعدة الاعتدال: " فإن أكثر كلماتها وضعت على ثلاثة أحرف، وأقلوا من الرباعي والخماسي؛ لئلا يطول بهم الأمد في القول بدون فائدة، ولم يكثروا من الثنائي؛ حذراً من أن تتجاور منه عدة كلمات في خطاب واحد، فيقع في لهجته تقطع كثير يضعف بنسيجه، ويذهب بحسن تناسقه، وبهاء توسله"(الخضرحسين،1960: 129).

وتسمح هذه القاعدة للسامع الوقوف عند بداية اللفظ ونهايته، وإن وصل المتكلم جمله ولم يفصلها، وهو ما يستطيعه السامع بمنطق الاعتدال أن يثبت الكلمات الداخلة في الجملة من الكلمات المنفصلة عنها، وشأنه ما ينحو في الخطاب نحو المتانة والانسجام، وبهذه القاعدة تكون أكثر كلمات العربية ثلاثية، فينتقل اللسان في نطقه باقتدار من أول الكلمة ليعتمد على ثانيها وينتهي بثالثها بانسجام كآلة تعمل وفق قانون طبعي لا يتعارض مع تهذيب المعاني في النفس وألفاظها الدالة عليها .

ثالثاً: اتساع وضعها

تنقسم اللغات عند محمد الخضر حسين تبعاً لغزارة المباني اللغوية، وتعدد ألفاظها واتساع طرق دلالتها إلى لغتين؛ الأولى اللغة غير الراقية: ما كانت موادها قليلة لا يسع التعبير بها أكثر ما تمس الحاجة إليه، مثل الزنجية ولغة بعض سكان أستراليا الناقصة جداً، ولا يمكنهم التفاهم بها إلا مع إشارات حسية، والعمي عندهم والمتخاطبون ليلا بمنزلة من في آذانهم وقر لا يكادون يفقهون حديثاً. والثانية اللغة الراقية: ما غزرت مبانيها واتسعت طرق دلالتها، فكانت موفية بتأدية المراد مع الاستغناء عن الإشارة، وعدم الاعتماد على قرائن الأحوال في الأكثر مثل اللاتينية والفارسية والعربية" (الخضرحسين،1960: 144).

ويعد الترادف من أبرز ظواهر العربية عنده، فتعدد الألفاظ الدالة على المعنى الواحد يدل على سعة في طرق الدلالة، فلا تأخذ المتكلم حبسة في أثناء خطابه، ويجد مساحة اللفظ واسعة تعينه في تقريب المعنى المراد، وإن صعب على نطقه كلمة كالألثغ جاء بمرادفها، كفعل واصل الغزالي حين ترك النطق بالراء في لفظ (الكافر) إلى (الملحد) .

ويستشهد الخضر حسين بقول الباقلاني:" ويقول العارفون بألسنة الأمم إنهم لا يجدون في تلك الألسنة من الأسماء الموضوعة للشيء الواحد ما يعرفونه من اللغة العربية" (الخضرحسين،1960: 144).

وفي غزارة الأسماء المرادفة الدالة على المعنى الواحد ما ذكره ابن فارس، يقول: " ومما لا يمكن نقله البتة أوصاف السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الأسماء المترادفة، ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد غير اسم واحد، فأما نحن فنخرج له خمسين ومئة اسم " (ابن فارس،1993: 22).

ويعرض من طرق الاتساع مثله تمييز المؤنث في الخطاب بعلامة التأنيث بوضع الألف في اسم أو التاء في اسم وفعل كما فرقوا بينهما في الضمائر والموصولات وأسماء الإشارة. وقد لا نجد هذا التمييز بين المذكر والمؤنث في الفارسية أو التركية أو الإنجليزية.

وعنيت العربية بالمؤنث عناية فائقة، فخصت المؤنث بضمائر فصلتها عن المذكر في الخطاب بينهما (أنتَ) للمذكر و (أنتِ) للمؤنث. وعاملت جموع التكسير بخطاب المؤنث (قالت الأعراب) . وهو ما يعني في خلاصة النظر أن لفظ المؤنث يزيد في مفردات اللغة ويعطيها غنى وثراءً.

وزادت العربية سعة في دلالة اللفظ بذاته على قيمته العددية بإضافة لاحقة إلى مفرده، فيدل على المثنى بلفظه كقولنا: مسلم – مسلمان، وعلى الجمع بإضافة اللاحقة الواو والنون: مسلمون. " ومن اللغات ما وجد خالياً مما يدل على العدد كالإنجليزية، فاللفظ الدال على المفرد هو الدال على غيره، ومنها ما لا يوجد فيه سوى المفرد والجمع كالفارسية، وزادت العربية بما يدل على الاثنين فميزوه عن المفرد والجمع بعلامة الألف أو الياء،وأفردوه في وضع الضمائر والموصولات وأسماء الإشارة بأوضاع خاصة "(الخضرحسين،1960: 145).

رابعاً: طرق اختصارها

راعت العربية مقام الحال في منطق حديثها، فجاء اللفظ لينقل المعاني من الذهن إلى السامع بمقدار الحاجة إليه، فيحضر اللفظ دون زيادة حشو تعد من اللغو الباطل، ولا نقص يلبسالمعنى ويشوه مضمونه، ويرى محمد الخضر حسين: " ما دعا الواضع أولاً إلى التقدير في وضعها، واعتباره بمقدار الحاجة إلى الإفهام، فإذا اتفق في اللفظ القصير كفاية وغنى في الدلالة على المراد آثره في الوضع على ما هو أبسط منه حتى لا تسمع في حديث مخاطبك الحكيم لاغية" (الخضرحسين،1960: 139).

وبيانه في البلاغة الإيجاز والاختصار، وقد جاء في البيان والتبيين أن معاوية بن أبي سفيان سأل صحار بن عياش العبدي: " ما هذه البلاغة التي فيكم، قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا، فقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز، قال له معاوية: وما الإيجاز قال له صحار أن تجيب فلا تبطىء، وأن تقول فلا تخطىء"(الجاحظ،1988: 91/1).

والإيجاز غايته المقام والسياق، وسبيله اقتدار المتكلم وبيان تصرفه في فنون القول الدال على المعنى في نفسه دون تزيد يمل منه السامع، ومقياسه حصول المعنى ووصوله بتمامه إلى ذهن السامع، فيصبح عندها ذاته، فمتى حضر المعنى الذي أراده المتكلم بمقدار لفظه أغنى عن كل زيادة أو تكرار قد يشوه التركيب ويضعفه، ومثاله في عطف المتماثلين بزيادة اللاحقة على المفرد التي تدل على المثنى دون تكرار المفرد المتشابه، فلا نقول: حضر طالب وطالب. نقول: حضر طالبان. فكان من طرق الاختصار في العربية زيادة اللاحقة على المثنى خشية تكرار المتماثل الحاصل في ذهن السامع بوجود اللاحقة فينصرف ذهنه إلى مثنى (طالب)، ولا يلزمه ذكر القيمة العددية قبل المفرد للدلالة على المثنى كبعض اللغات، فيقولون : حضر (اثنان طالب).

ويقر محمد الخضر حسين أن مظاهر الاختصار التي ميزت العربية كثيرة لا مجال لحصرها، يقول: " كما وضعوا الضمائر لتنوب الأسماء الظاهرة، وأقاموا علامة التثنية والجمع بأنواعه مقام العاطف والمعطوف، واستغنوا بتغيير الكلمة في التصغير عن وصف المسمى بالصغر بعد ذكر اسمه"(الخضرحسين،1960: 140).

وتميل العربية إلى استعمال الضمائر بغية الإيجاز والاختصار، إذ يقوم الضمير مقام الاسم العائد عليه ويغني عن تكراره لحضوره في ذهن السامع بعد أن حكاه المتحدث في بدء حديثه، ولو كرر ذكره لنفر السامع من توالي ذكره لعلمه به، ووجد في نفسه زيادة في الحديث لا مسوغ لها، وربما أحدث تكرير الاسم اللبس والتوهم في الاسم المرادفي قول المتحدث، فلو قال: حضر الطلاب وكتب الطلاب .

قد يظن السامع أن من كتبوا ليس من مجموعة الطلاب الذين حضروا، وتفترق دلالة الجملة السابقة عن قولنا: حضر الطلاب وكتبوا. فمن كتب هو من حضر دون لبس.

وقد عدّ علماء اللغة المضمرات ضرب من باب الإيجاز، يقول ابن يعيش: " وإنّما أُتي بالمضمرات كلَّها لضربٍ من الإيجاز، واحترازًا من الإلباس. فأمّا الإيجاز فظاهرٌ، لأنّك تستغني بالحرف الواحد عن الاسم بكَماله، فيكون ذلك الحرفُ كجُزْءٍ من الاسم، وأمّا الإلباس فلأنّ الأسماء الظاهرة كثيرةُ الاشتراك، فإذا قلت: "زيدٌ فعل زيدٌ"،جاز أنّ يُتوهّم في "زيدٍ" الثاني أنّه غيرُ الأول. وليس للأسماء الظاهرة أحوالٌ تفترِق بها إذا التبست. وإنّما يُزيل الالتباسَ منها في كثيرٍ من أحوالها الصفاتُ، كقولك: "مررت بزيدٍ الطويلِ، والرجلِ البَزّازِ". والمضمراتُ لا لَبْسَ فيها، فاستغنتْ عن الصفات؛ لأنّ الأحوال المقترِنة بها قد تغني عن الصفات"(ابن يعيش،2001: 292/2).

وكان الاستغناء عن الضمير المنفصل مع فعله واتصال الضمير به مباشرة أبلغ في الاختصار، فلا نقول : حضر نحن . نقول: حضرنا . وجاء في الأشباه والنظائر للسيوطي : " كما استغنوا بالضمير المتصل عن الضمير المنفصل في قولك: قمتُ، ولم يقولوا: قام أنا، وقمتَ، ولم يقولوا: قام أنت "(السيوطي،1990: 40).

والحديث في الاختصار والإيجاز طويل، وهو يصور فكر العرب ووعيهم بضرورة الاختصار الذي يتطلبه حال العربي في طبيعته الاجتماعية القائمة على الحفظ، وشأنهم في ذلك الاقتصاد اللغوي والإيجاز، فكانوا يكرهون الإكثار إلا لضرورة السياق، وقد صرح ابن جني بإيثارهم الاختصار في قوله:" وقيل لأبي عمرو: أكانت العرب تطيل؟ فقال: نعم لتبلغ، قيل: أفكانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها، واعلم أن العرب مع ما ذكرنا إلى الإيجاز أميل وعن الإكثار أبعد ألا ترى أنها في حال إطالتها وتكريرها مؤذنة باستكراه تلك الحال وملالها، ودالّة على أنها إنما تجشّمتها لِما عناهاهناك وأهمّها فجعلوا تحمّل ما في ذلك على العلم بقوّة الكُلْفة فيهِ دليلا على إحكام الأمر فيما هم عليه"(ابن جني،1955: 83/1).

ويشير محمد الخضر حسين إلى مظهر من مظاهر الاختصار في أسلوب الاستفهام اللغوي في العربية،فلا يستطيع المرء أن يحيط بجنس المسؤول عنه جميعه في سؤاله عن عدده أو حاله أو مكانه ما يلزمه مع همزة الاستفهام، ولا يستطيع السائل أن يحيط بذكر الحاضرين جميعهم ليصل إلى المسؤول عنه بخاطره: أحضر علي؟ أم خالد؟ أم سالم؟والإكثار واضح هنا يغني عن استعماله الاستفهام بـ : (من حضر؟) .

المبحث الثالث : سعة العربية ووسائل نموها

تتميز العربية بمرونتها وقدرتها على التفاعل مع حركة الحياة وتطورها، فهي لغة الفكر والحضارة تساير حركة مجتمعها، وتلبي حاجات عصرها، وتستوعب الجديد في كل زمان بقوانينها وأنظمتها الداخلية التي سمحت لها بالبقاء والاستمرار وعدم الاندثار؛ فهي كائن حي ينمو ويتكاثر بأثر نمو مجتمعه وتطوره، وذلك بما قامت عليه من منهج علمي في التوليد اللغوي – اللفظي والدلالي –بقوانين الاشتقاق وضوابطه أو المجاز أو النقل أو التعريب..، وقد أشار محمد الخضر حسين إلى وسائل نمو العربية التي أثرتها وجعلتها تستوعب ما أنتجته المدنية في شتى ميادين الحياة، يقول: " وسعت هذه اللغة العلم والسياسة والصناعة وضروب المعاملات وكل معنى يراد من ذهن إلى آخر، وساعدها على ذلك غزارة مادتها، وما تفتح فيها من أبواب الاشتقاق والتصرف في الكلمة على وجوه المجاز أو النقل، ثم تهيؤها لقبول الكلمات الأعجمية بعد تهذيب حروفها "(الخضرحسين،1960: 5).

أولاً: الاشتقاق

عني علماء اللغة عناية فائقة بظاهرة الاشتقاق في العربية، وقدم القدماء والمحدثون جهداً كبيراً، فألفوا فيه الكتب وعقدوا في تفصيله المباحث المتعددة قصداً إلى دراسة سبل إثراء العربية وتنميتها، والوقوف على ما يطرأ على اللغة من الألفاظ أو الصيغ أو الأساليب .

وقد أسعف الاشتقاق الصناعات والمخترعات بالألفاظ والمصطلحات الدالة عليها بما يناسبها من توليد الصيغ والألفاظ التي جعلت العربية قادرة على استيعاب كل جديد حادث في كل عصر وزمن. وفي تعريفه يقول الجرجاني: " نزع لفظ من آخر، بشرط مناسبتهما، معنى وتركيباً، ومغايرتهما في الصيغة "(الجرجاني، 1985: 27).

ولعل تعريف الجرجاني يشتمل على الاشتقاق الأصغر، وهو الصرفي، والمراد من الاشتقاق العام، والأكثر دوراناً في كتبهم ومصنفاتهم، وقد انصب عليه جهد الدارسين في محاولة لفهم سعة العربية وتنميتها وقدرتها على التوليد؛ كالدلالة على الفاعلية والمفعولية والمبالغة والصفات المشبهة والتفضيل وما يدل على الزمان والمكان من الصيغ التي تدور فيها المادة اللغوية الواحدة بقياسات الاشتقاق في العربية وقوانينها.

والحاجة للاشتقاق مستمرة ومظهرها ما تقوم به المجامع اللغوية في توليد الصيغ والأساليب التعبيرية للدلالة على كل مستحدث في حركة المجتمع وتطوره، فهو وسيلة لنمو اللغة وثرائها، "فالاشتقاق الذي يتصل مباشرة بقضية نمو اللغة وصوغ المصطلحات وزيادة الثروة اللفظية، إنما هو هذا التوليد الصرفي الذي تستخدم فيه الأوزان المعروفة لإخراج لفظ يضاف إلى ألفاظ اللغة" (قدور،2003: 204).

وأقرّ محمد الخضر حسين بأهمية الاشتقاق ودوره في نمو اللغة وثرائها لتواكب المستحدث الجديد في كل علم وفن، يقول: " ولما كانت العربية من اللغات المتصرفة يشتق منها اسم الفاعل والمفعول والمكان والآلة سهل الطريق إلى وضع أسماء مفردة لهذه المستحدثات، فإن أكثرها من قبيل المكان أو الآلة أو الموصوف بالفعل" (الخضرحسين،1960: 157).

وبيّن في بحثه: " طرق وضع المصطلحات الطبية"، اتساع اللغة العربية ومسايرتها للعلوم والفنون ، فكانت وعاءً يستوعب المصطلح الطبي ويسد حاجته بما فيه من أصول الاشتقاق والقياس والمجاز والنقل،وقد اعتمدوا عليها لتوليد المصطلحات التي تقدم المعاني الطبية وتعبر عنها، ويقول : " إن علم الطب قد وجد في اللغة العربية مداداً أكثر مما وجده غيره من العلوم المنقولة إليها، ووجد علماء الطب بعد ذلك المدد أصولاً في اللغة تسمح لهم بوضع مصطلحات لمعان طبية لم يتقدم للعرب أن وضعوا لها أسماء، مثل أصول الاشتقاق والمجاز والنقل، فصاروا يضعون مصطلحات زائدة على ما تكلمت به العرب في هذا العلم، وصارت كتب الطب تصدر في عبارات عربية فصيحة"(الخضرحسين،1960: 228).

ويشير إلى قائمة الكلمات الطبية الموجودة في الكتب الطبية المؤلفة بالعربية، وكثير منها مشتقة من الفعل اللغوي الذي يشترك معها في الدلالة الطبية التي يريدونها ، " .. وكلمات اشتقها أولئك الأطباء لمعان يتحقق فيها معنى الفعل الذي اشتقت منه، كما سموا العرض دليلاً، نظراً إلى مطالعة الطبيب إياه، ومعرفته ماهية المرض منه "(الخضرحسين،1960: 229).

وساق أمثلة من أسماء آلات الكي والجراحة التي ذكرها الزهراوي في كتابه " التصريف " ، يقول: " فإنه رسم في هذا الكتاب صور الآلات، وذكر لكثير منها أسماء مناسبة نحو المكواة والزيتونة والمنشارية والهلالية والمسارية " (الخضرحسين،1960: 231).

والمتأمل في قائمة المصطلحات الطبية، وقدرة العربية الفعلية في استيعاب علم الطب وغيره من العلوم ما يبعث الحماسة في النفس نحو الفكر العربي في خصوصيته ووجوده الحضاري، وهو يعبر عن علومه وفنونه بلغته التي تشرف نطقاً بها معلناً عن هويته وكيانه بين الأمم رغم الدعوات إلى تدريس العلوم الطبية بلغة أخرى بحجة حداثة العلوم وعالميتها، والسؤال الذي يدق في النفس ونحن نعتمد غير العربية في تعليم العلوم الطبية وغيرها لقرون امتدت، هل حقاً واكبنا الحضارة؟ وأين نحن منها اليوم؟ .

ثانياً : المجاز والنقل

لعل المتأمل في المقالات العلمية والأدبية التي قدمها محمد الخضر حسين يقف على خيط مشترك ينطلق منه فكره في كل كتاباته، فيجده القارئ باحثاً علمياً محايداً، يقف عند ظواهر اللغة العربية ومظاهر تمثلاتها في الفكر العربي بغية إظهار عظمتها وتفضيلها في قوانين استعمال ألفاظها وأساليبها، وكثرة طرق بيانها مما وفر لها استيعاب حضارة إنسانية إسلامية عربية بعيدة المدى،ووجدت في أصول وضعها واستعمالها ما يسد حاجة العلوم وحداثتها والحضارة ومظاهرها، فنهضت بالمعارف والعلوم والفنون والفلسفة وصارت لسان حالها، يقول: "وسعت هذه اللغة العلم والسياسة والصناعة وضروب المعاملات، وكل معنى يراد نقله من ذهن إلى آخر، وساعدها على ذلك كله غزارة مادتها، وما تفتح فيها من أبواب الاشتقاق، والتصرف في الكلم على وجوه المجاز أو النقل،ثم تهيؤها لقبول الكلمات الأعجمية بعد تهذيب حروفها،وحيث تدعو الحاجة إلى تعريبها"(الخضرحسين،1975:5).

ويصرح محمد الخضر حسين بهدفه المنشود في بحثه " المجاز والنقل وأثرهما في حياة اللغة العربية"، الذي ركز فيه على دور المجاز والنقل في إثراء اللغة وزيادة ثروتها وتنميتها، وما يقدمانه للغة لتتجدد مع تجدد العلوم وتساير حركة حياتها، ويظهر منهجه وفكره طريقة تناوله ومعالجته لحقيقة المجاز وعلاقاته، وحاضراً في ذهنه هدفه المنشود وغايته في بحثه أشد الحضور، فلا يبسط القول في تحليلات وتفصيلات خبِرها المطلع والعارف بانتقال الذهن من الحقيقة إلى المجاز، ولا يعنيه أن ينشغل المتلقي عن جوهر الفكر المتضمن في حقيقة البحث، يقول: " وأراني في موقف الباحث الذي يسوق حديثه إلى أدباء درسوا فن البيان، وكانوا منه على بينة، فلا أطيل في تعريف المجاز، وذكر أقسامه ولا أتعرض للعلاقات التي هي شرط صحته: علاقة فعلاقة، بل أمرّ على معنى المجاز بكلمة وجيزة، وأتحدث عن العلاقة، من الناحية التي يأخذ بها الكلام صحته أو فصاحته العربية، وأتخلص إلى الفرق بين المجاز والنقل، وأريك كيف يكسبان اللغة ثروة، وكيف يقومان بجانب عظيم من حاجات العلوم، وما يتجدد من مرافق الحياة" (الخضرحسين،1975: 5).

ويتتبع محمد الخضر حسين التاريخ الاستعمالي للمجاز عند علماء اللغة، وهو طريق القول ومأخذه وصولاً إلى المعنى الخاص الذي استقرت عليه لفظة المجاز في تعرف أهل البيان، يقول : " وهذا المعنى الخاص الذي صارت إليه كلمة المجاز، هو الذي جرت عليه كلمة المجاز في عرف البيانيين، فإنهم يطلقونه على اللفظ الذي ينقله المتكلم من معنى وضع له اللفظ، إلى معنى بينه وبين ذلك المعنى مناسبة: أي علاقة ، والعلاقة إما المشابهة، وهومبنى الاستعارة، وإما غير المشابهة، وذلك مبنى ما يسمونه المجاز المرسل. وهذا المعنى الذي انتهت إليه كلمة المجاز" (الخضرحسين،1975: 7).

موقف العلماء من نقل الألفاظ إلى غير معناها على سبيل المجاز :

يعرض محمد الخضر حسين اختلاف مذاهب علماء البيان في استعمال اللفظ في غير معناه لتحقق العلاقة بعد أن خبروا وجوه العلاقات التي يراعيها العرب في نقل اللفظ إلى غير معناه على سبيل المجاز، فرفض فريق منهم توسيع دائرة النقل، وبالغ في تضييقها، ولم يزد على استعمال الألفاظ التي كما جاءت عن العرب: كالأسد للرجل الشجاع، والغيث للنبات، واليد للنعمة،" وهذا المذهب صريح في أن المولد لا يباح له نقل لفظ من معنى إلى معنى لم ينقله إليه العرب، وإن كان بين المعنيين علاقة من تلك العلاقات المقررة في فن البيان، فلا يستعير لفظ الغضنفر مثلاً للرجل الشجاع، ولا يطلق لفظ المدام على عصير العنب، مع تحقق العلاقة وهي مصير العصير إلى أن يكون مداماً، إلا إذا ورد إطلاقه عليه في الكلام العربي" (الخضرحسين،1975: 7).

ويقف الباحث عند نظر محمد الخضر حسين إلى هذا المذهب وموقفه منه لاستكناه فكره وتجلية حقيقته، ومدى التطابق بين التنظير بفهم جوهر اللغة ووظيفتها وقدرتها على تلبية حاجة الفرد والمجتمع، يقول: " وهذا المذهب ساقط بنفسه، ولا أظنك تجد له نظيراً بين علماء لغة يجري في عروقها دم الحياة" (الخضرحسين،1975: 8).

وانطلاقاً من الفهم العميق لطبيعة الخطاب اللغوي الذي استعمله محمد الخضر حسين ووظيفته في الإعلان عن الموقف الفكري تجاه هذه المسألة المهمة في إدراك دور المجاز في تنمية اللغة وقدرتها على استيعاب المستحدثاث في كل شأن الحضارة الإنسانية؛ كشفت اللغة التي استعملها محمد الخضر حسين في رفض هذا المذهب عن التوقد الذهني لتمثل حركة الحياة وتطورها وانعكاسها على اللغة، فمسايرتها التطور المستمر في طبيعة المستجدات والتعبير عنها معناه حياة اللغة وثرائها، وجمودها عن التعبير في التطور الذي يسمح به المجاز معناه العجز والاندثار، وهذا يدل على عمق الرؤية لوظيفة المجاز في حياة العربية واستمرارها لغة حية، " ولا يخفى ما في هذا المذهب من فساد، وما يترتب على الأخذ به من تضييق لمجال القول وإيصاد لمناحي البيان، وقضاء على العربية بالجمود والعجز عن التعبير عما يجد من شؤون الحضارة والاجتماع والعلوم والفنون" (وافي،1972: 176).

ويميل محمد الخضر حسين إلى المذهب الثاني، ويعده رأي جمهور العلماء، ومدار صحة المجاز فيه مراعاة العلاقات التي راعتها العرب، ولا يقتصر المجاز في استعمال الألفاظ التي استعملتها العرب في غير ما وضعت لها كالأسد والغيث والقمر، فيباح استعمال اللفظ في معناه المجازي متى تحقق بين المعنيين علاقة من العلاقات التي أقرها العرب في علوم البيان، " فنطلق لفظ (استقلال) على راحة البال وهناءة العيش، ونسمي الكتب خزانة، ونستعمل الرعد في أصوات المدافع، وإن لم يذهب العرب بلفظ الاستقلال والخزانة والرعد هذا المذهب من المجاز" (الخضرحسين،1975: 7).

ويدلل على وجاهة هذا الرأي ما جرى عليه أهل الأدب، فكان سبيلهم إلى المجاز تحقق العلاقة ونوعها دون البحث عن لفظ بعينه، ولو ضُيّق باب قياسية المجاز لم يجد الشعراء والأدباء اتساعاً في فن البيان، ولما زاد الثراء البياني الذي يزيد اللغة رفعة ومكانة. ويقوي هذا المذهب أن علماء اللغة لم يلتزموا بذكر المعنى المجازي لاستعمال الألفاظ بعد ذكر المعاني الحقيقية، لأنه :"لو كان استعمال الألفاظ على سبيل المجاز موقوفاً على النقل لدعاهم الاحتفاظ بهذا الفن من البيان، أن يلتزموا بعد بيان المعاني الحقيقية ذكر المعاني التي استعمل العرب فيها اللفظ على وجه من المجاز، وما رأيناهم يفعلون" (الخضرحسين،1975: 9).

ثالثاً: التعريب

جاء في الصحاح :" تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على مناهجها وأسلوبها "(الجوهري،1990: مادة عرب). وفي معناه تطويـع غير العربي لقوانين اللفظ العربي بالزيادة أو الحذف أو القلب ليصبح من جنس كلام العرب، " أما التعريب، فإنها كلمة تطلق على العملية التي تجري على الكلمات الأجنبية، حين يدخلها العرب إلى لغتهم، ويعني هذا أن تلك الكلمات المستعارة في العربية، لم تبق على حالها تماما، كما كانت في لغاتها، وإنما حدث فيها أن طوعها العرب لمنهج لغتهم، في أصواتها وبنيتها وما شاكل ذلك "(عبدالتواب،1995: 183).

ومظهره التقاء اللغات وأخذ العرب من لسان غيرهم في أصله ليصبح عربياً في استعماله، والحاجة إلى التعريب ملحة في فهم طبيعة حركة الزمن الممتدة، وقد يتولد من المخترعات والمكتشفات في صناعة الأمم ما يفوق الطاقة الفعلية للغة إذا احتجبت بظواهرها وقوانينها الداخلية عن استيعاب الجديد، ولعل باب التعريب في العربية جعل منها لغة حية غير متحجرة، فقدرتها بقوانينها الناجزة استوعبت حركة الزمن بل وتجاوزتها في التسهيل على منظري اللغة ولغوييها مهمة وضع المصطلحات للمسميات الجديدة التي لم تعرفها العرب قبل ذلك، فيغدو اللفظ الأجنبي عربي الروح بعد تعريبه، و" عند الحديث عن التعريب، سنرى أن مقدرة لغةٍ ما على تمثل الكلام الأجنبي،تعدمزيةوخصيصةلهاإذاهيصاغتهعلىأوزانها،وصبّتهفيقوالبها،ونفختفيهمنروحها"(الصالح،1960:110).

ويشهد محمد الخضر حسين للعرب برقي فكرهم، وهم يضيفون إلى لغتهم الفصيحة من لغات الأمم الأخرى ما يزيدها اتساعاً وقدرة على استيعاب مظاهر الحضارة ومستجداتها، مما يحقق لها صفة الحياة والبقاء والبعد عن التحجر والجمود رغم علمهم وإيمانهم بعلو شأن لغتهم وفصاحتها، ولم يكن التعريب في حقيقته شبهة عليهم، إنما ميزة تمكن العربية من التعبير عن الوجود الإنساني وحاجاته، ووسيلة لنموها وكثرة ألفاظها وبقائها، يقول: " إنهم لم يستنكفوا مع إعجابهم بفصاحة لغتهم وعلمهم بكثرة مفرداتها وتصاريفها أن يضيفوا إليها من لغات الأمم ما يوفر عددها ويزيدها سعة على سعتها، ومن هذه الألفاظ الدخيلة ما يبقونه على حالته التي كان عليهاعندالعجمنحوكركم،ومنهمايغيرونهبالنقصأوالزيادةأوالإبدال"(الخضرحسين،1960:153). وقداهتمعلماء اللغة قديما وحديثا بهذه الظاهرة، وتعددت آراؤهم باختلاف فهمهم لوجه التعريب وأثره ووظيفته في اللغة وعليها، وقد تشدد بعضهم في قبول التعريب وتعصبوا للعربية وأنكروا وجود اللفظ غير العربي في جنس الكلام العربي باعتبار أصل وضعه، ولعلهم لم يستسيغوا وجود المعرب بعد وصف القرآن باللسان العربي في قوله تعالى: "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ " (سورة الشعراء،195).

وعرض السيوطي اختلاف العلماء والفقهاء في قبول المعرّب، يقول: " اختلف الأئمة في وقوع المعرب في القرآن، فالأكثرون ومنهم الإمامالشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكروابن فارس على عدم وقوعه فيه لقوله تعالى: { قرآنا عربيا } وقوله تعالى: { ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي } "(السيوطي،1974: 125/2).

وأنكر أبو عبيدة معمر بن المثنى وجود اللفظ المعرّب في القرآن في قوله: " من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية، فقد أعظم على الله القول " (الجواليقي،1990: 4).

واستدل الشافعي بما ورد في القرآن من وصفه بالعربي، ورد القول بوجود المعرّب في القرآن، ويقول: " وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به أقرب من السلامة له إن شاء الله فقال منهم قائل: إن في القرآن عربياً وأعجمياً، والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شئ إلا بلسان العرب.... ولعل من قال إن في القرآن غير لسان العرب، وقبل ذلك منه ذهب إلى أن من القرآن خاصا يجهل بعضه بعض العرب " (الشافعي،2001: 17).

وأغلب الظن أن هذا التشدد جاء بفهم ظاهر النص القرآني، وقد تكرر وصف القرآن بالعربي: "وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً" (سورة الشورى،7). وقوله تعالى: " قرآنا عربياً غير ذي عوج " (سورة الزمر،28). وقوله تعالى: "لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" (سورة النحل،103).ويدل التكرار بوصفه العربي، أن القرآن نزل بلغة العرب وليس بلغة غيرهم، ولكن السؤال الذي يحضر هنا، هل ينفي هذا الوصف ما عدّه العرب من الألفاظ في لغتهم واستعملوه في تعبيرهم أنه من جنس كلامهم العربي ؟ وكيف ينسحب فهم الوصف بـ (العربي) على أصل الألفاظ قبل تطويعها لقانون العرب في قولهم؟.

ويرفض محمد الخضر حسين القول بفساد اللغة إن دخلها لفظ من غير جنسها بل يعدّها من فصيح العربية في استعمالها ونسبتها إليها، : " وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أن إدخال الألفاظ الأعجمية على اللغة مفسد لها، فإن القرآن وهو الراقي بفصاحته إلى حد الإعجاز قد اشتمل على عدة كلمات غير عربية نحو مشكاة من الهندية واستبرق من الفارسية وقسطاس من الرومية، وهذا لا ينافيه قوله تعالى: (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)، فإن هذه الألفاظ لما أخذها العرب وأدخلوها في لسانهم اختلطت بلغتهم وصارت معدودة فيما هو عربي فصيح فلا يخرج الكلام الشامل لها من نسبته إلى العربية " (الخضرحسين،1960: 153).

ومن المشهور عن حياة العرب قديماً الاحتكاك بالأمم الأخرى، كالفارسية والهندية والحبشية في تجارتهم، وهم يتبادلون السلع والبضائع، فتتسرب بعض ألفاظهم إلى العربية، ثم تجري الألسنة العربية بها بعد أن تخضع لقواعدهم في الصوت والصرف والوزن، و" التعريب تحويل طبيعي أو تغيير تدريجي يطرأ على اللغة، ويجري بها في ناموس مطرد، وقد خضعت له اللغة العربية ومن أول نشأتها كما تخضع له الآن وبعد الآن " (المغربي،1908: 26).ونزل القرآن بالعربية وفيها تلك الألفاظ، ولا يتعارض تأكيد القرآن بالعربي في التنزيل بالقدح بأعجمية هذه الألفاظ المعربة أصلاً.

ولعلنا نجانب الحقيقة إذا سلمنا بهذا القول، والقرآن يقف شاهداً على قوم فقهوا من أمر لغتهم اللفظ الأصيل والدخيل، ولم ينكروا ذكره في القرآن فقد ألفوه في التعبير والاستعمال، وصار جزءاً من لغتهم الفصحى، فقد "روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم، في أحرف كثيرة من القرآن الكريم أنه من غير لسان العرب، مثل: سجيل، والمشكاة، واليم، والطور، وأباريق، وإستبرق، وغير ذلك" (السيوطي،1998: 268/1).

ولم يُعرف عن السلف ممن عاصر نزول الوحي رفضهم لعربية هذه الألفاظ، وأقروا بعربية القرآن كله، وقد كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما يحثه على التفقه في العربية: " أما بعد، فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربي " (ابن أبي شيبة،2006: 29328).

وكيف يمكن الحكم بغير عربيتها؟ وقد اصطبغت بالصبغة والروح العربية، ولم تبق على حالها في بنيتها الصوتية والصرفية الأصلية، إنما طوعتها العرب لقوانينها اللغوية و" تخضع في الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية في اللغة التي اقتبستها، فينالها كثير من التحريف في أصواتها وطريقة نطقها، وتبعد في جميع النواحي عن صورتها القديمة"(وافي،2004: 253).

وتابع الشيخ أحمد شاكر رأي أبي عبيدة معمر بن المثنى في العصر الحديث، وأنكر وقوع المعرّب في القرآن، يقول: " قول ينبو عنه التحقيقوإنما ذهب إليه من ذهب، إعظاماً لما روي عن رأي الأقدمين في ألفاظ قرآنية أنها معربة " (الجواليقي،1990: 11).

ولم يعدّ لفظ (الاستبرق) من المعرب ، يقول: " هكذا زعم كثير من أهل اللغة، أنها معربة وليس في القرآن معرب سوى الأعلام" (الجواليقي،1990: 12).

وتوسط أبوعبيد القاسم بن سلام في القول بعربية المعرّب بعد خضوعه لقواعد البناء العربي، فقال: " وذلك أن هذه الحروف، بغير لسان العرب في الأصل، فقال أولئك على الأصل، ثم لفظت به العرب بألسنتها، فعربته فصار عربياً بتعريبها إياه، فهي عربية في هذه الحال، أعجمية الأصل " (السيوطي،1998: 269/1).

ويرى الباحث أن العرب سبقوا التنظير في التعريب، فاستعملوا الألفاظ الأعجمية بعد تعريبها لوعيهم وإدراكهم ورغبتهم الدخول في المنجز الحضاري، ومن فطرتهم بلغتهم أن ذلك لا يؤثر في فصاحة لغتهم بل يزيدها نمواً وكثرة،ويقول المغربي: " هناك اختراعات، أوجدها قوم من غير أبناء لغتنا، ووضعوا من كلمات الأحداث والمعاني التي تشتق، ويشتق منها ما يتعلق باستعمال تلك المخترعات، ويدل على طرق الانتفاع بها، اخترعوا الأوتومبيل مثلا، وسموه بهذا الاسم، فنحن معشر العرب نأخذه ونأخذ اسمه، كما أخذ أسلافنا المنجنيق واسمه من لغة اليونان" (المغربي،1908: 74).

ومظن البحث في التعريب وغايته عند محمد الخضر حسين، هو حاجة العرب استيعاب العلوم والفنون والمعارف من أصولها بصفتها الإنسانية بعيداً عن التعصب والتشدد الذي يقدح في روح اللغة وعمقها وسعتها وحياتها في مستويات الوجود الإنساني، يقول: " ولم يقتصروا على الاشتقاق من العربية، وسلكوا طريقة العرب في اقتباسهم من غير لغتهم، فنقلوا جملة من الكلمات الأعجمية، واستعملوها بحالها كالسقمونيا والأسطرلاب من اللغة اليونانية والإسطوانة والبنج من اللغة الفارسية هذه الاصطلاحات المتجددة وإن كان السبب الذي يدعو إلى وضعها أولاً هو الحاجة إلى التفاهم في مسائل تلك العلوم، فلا جناح على من أوردها في أغراض خارجة عن العلم متى جرت إليها مناسبة تشبيه أو تلميح في خطاب" (الخضرحسين،1960: 155).

النتائج والتوصيات

يكشف البحث عن إجابات للتساؤلات الثقافية المقلقلة عن حاضر أمتنا ومستقبلها، في ضوء الثورة المعرفية والتقنية المتسارعة في العصر الحديث والتي تجتاح العالم في ظل صراع الحضارات وتنافسها وأسباب وجودها، وينطلق الخضر حسينبفكره اللغوي الإصلاحي في البحث عن محددات الوجود للأمة العربية في تاريخها الممتد لقرون طويلة، ويقف عند اللغة العربية الجامع المشترك للشعوب العربية، وأساس وحدتهم ومحدّد هويتهم الفكرية والثقافية، فهي جوهر وجودهم وأمنهم القوميبما تحقق لها من القوانين اللغوية والظواهر العرفية العربية والقدرة التعبيرية في استيعاب مضامين الوجود الإنساني في مستوياته كافة.

ويقرر فكر محمد الخضر حسين هذه الرؤية بالنظر العلمي والتعليل المنطقي بعيداً عن الميل أو الهوى أو التعصب، ليثبت مسايرة العربية لقانون الوجود الطبعي في حركية الحياة وتطورها في كل زمن وحين، وبعدها كل البعد عن أسباب التخلف العلمي والحضاري والثقافي للأمة العربية وأسباب تراجعها.

وقد أظهرت الدراسة ميزة العربية بفعل قوانين الثبات والتطور التي لا تشاركها بها غيرها من اللغات، فهي ثابتة بقوة أنظمتها النحوية والصرفية والصوتية والتركيبة، ونامية متطورة تستوعب الجديد وتعبر عنه بتطور دلالات ألفاظها وصيغها وأساليبها، وقد مثلت وسائل تنميتها، كالاشتقاق، والتعريب، والنقل والمجاز، خصائص تكوينها التي تجعلها لغة حية نامية متطورة، وتستطيع مواكبة العصر وتستوعب ما وصل إليه الفكر الإنساني. ولا يقف شأنها عند هذا الحد بل هي لغة كلام الله الذي يكشف لنا حقيقة خلودها بتشريف القرآن لها بما فيها من قوانين الحياة والنمو.

الشكر والتقدير: يتقدم الباحث إلى المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية بالشكر الموصول لدعم البحث وإخراجه.

قائمة المصادر والمراجع

- الأزهري، أبو منصور محمد (2001)،تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أولمان، ستيفن(1975).دور الكلمة في اللغة ، تحقيق: كمال بشر ، دط، دار الشباب ،مصر.
- التهانوي، محمد بن علي(1996)، كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق: علي دحروج،ط1، مكتبة لبنان، بيروت.
- الثعالبي، أبومنصور(2002)، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق:عبدالرزاق المهدي، إحياء التراث العربي.
- الجاحظ، عمرو بن بحر(1988)، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الجرجاني، علي بن محمد(1985)، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (1955)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.
- الجواليقي، أبو منصور(1990)،المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم،تحقيق: د.عبدالرحيم، ط1، دار القلم، دمشق.
- الجَوْهريُّ، إسماعيل بنَ حمَّاد(1990م في روائع القرآن، عالم الكتب). تاج اللغة وصحاح العربية،تحقيق أحمد عبد الغفورالعطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- حسان، تمام(1994).اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب.
- حسان، تمام(1993).البيان في روائع القرآن ، عالم الكتب، القاهرة.
- حسن، عباس (1975)، النحو الوافي، ط5، دار المعارف، القاهرة.
- حسين، محمد الخضر(2010)، موسوعة الأعمال الكاملة، ط1، دار النوادر، لبنان.
- حسين، محمد الخضر(1960)،دراسات في العربية وتاريخها، ط2 ، دار الفتح، دمشق.
- حسين، محمد الخضر(1975)، دراسات في اللغة، الناشر: علي التونسي.

- حماد، أحمد عبدالرحمن(1985).العلاقة بين اللغة والفكر ،دار المعرفة الجامعية.، مصر
- خليفة، عبدالكريم(1987).اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث،ط1، منشورات مجمع اللغة العربية،عمان.
- دي سوسير، فريدنان(1985).علم اللغة العام، ت: يوئيل يوسف ، دار آفاق عربية، بغداد.
- الزَّبيدي، محمد مرتضى (1965). تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق:عبدالستار فراج، التراث العربي ، الكويت.
- زيدان، جرجي(1988). اللغة العربية كائن حي، دار الجيل، لبنان.
- السامرائي، فاضل(2000). معاني النحو، ط1،دار الفكر، عمان.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (1988)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- السيوطي، جلال الدين(1974)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق:محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- السيوطي، جلال الدين (1998)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي، ط1دار الكتب العلمية، بيروت.
- السيوطي، جلال الدين(1990)، الأشباه والنظائر ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الشافعي، محمد بن إدريس(2001)،الرسالة، ت: رفعت فوزي ، ط1، دار الوفاء، مصر.
- ابن الشجري، هبة الله بن علي العلوي(د.ت)، أمالي ابن الشجري، تحقيق محمود الطناحي، مكتبة الخانجي. القاهرة.
- ابن أبي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمد(2006)، المصنف، تحقيق: محمد عوامة، ط1 ، دار القبلة الإسلامية، جدة.
- الصالح، صبحي(1960).دراسات في فقه اللغة،ط1 ، دار العلم للملايين، لبنان.
- الضامن، حاتم صالح(1989).علم اللغة، منشورات جامعة بغداد.
- عبد التواب، رمضان(1995). بحوث ومقالات في اللغة، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- عبدالتواب، رمضان (1997).المدخل إلى علم اللغة،ط3 ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله(1995).اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: غازي طليمات، ، ط1 ، دار الفكر، دمشق.
- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس(1993)، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق عمر الطباع، مكتبة المعارف، بيروت.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد (1999)، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، دار الجيل، بيروت.
- فريحة، أنيس(1973).نظريات في اللغة،ط1، دار الكتاب، بيروت.
- فندريس، جوزيف(2014).اللغة ، ترجمة: عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، المركز القومي للترجمة، القاهرة
- قدور، أحمد(2003). فقه اللغة العربية، ط3، دار الفكر، دمشق.
- الكفوي، أبو البقاء أيوب(1998م)،الكليات، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري ،مؤسسة الرسالة، بيروت.
- مجمع اللغة العربية(1984)، مجموعة القرارات العلمية، أخرجها محمد شوقي وإبراهيم ترزي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.
- المغربي، عبدالقادر(1908).الاشتقاق والتعريب، مطبعة الهلال، مصر.
- ابن هشام، جمال الدين(1985)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط6 ، دار الفكر ، دمشق.
- وافي، عبدالواحد(1972) فقه اللغة، دار نهضة مصر،القاهرة.
- وافي، عبدالواحد(2004)علم اللغة، دار نهضة مصر، القاهرة.
- ابن يعيش، يعيش بن عليّ الحلبي(2001)، شرح المُفصَّل للزَّمخشريّ، قدَّم له إميل بديع يعقوب، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان.